

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٦-٣١) : صفات التوحيد  
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٨

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

### مضمون دعوة الرسل واحدة و هي التوحيد أولاً و العبادة ثانياً:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى. في هذه الفائدة يتحدث عن صفات التوحيد، أول حقيقة أن فحوى - أي مضمون - دعوة الأنبياء جميعاً التوحيد والعبادة، والدليل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

نُوحِي إِلَيْهِ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(سورة الأنبياء)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

وَهذِهِ مِنْ تَفْيِيدِ اسْتِغْرَاقِ أَفْرَادِ النُّوعِ، أَي

كُلِّ الرُّسُلِ مِنْ دُونِ اسْتِثْنَاءِ مَضْمُونِ

دَعْوَتِهِمُ التَّوْحِيدِ أَوَّلًا، وَالعِبَادَةَ ثَانِيًا،

التَّوْحِيدِ عَقِيدَةً وَالعِبَادَةَ سُلُوكًا، التَّوْحِيدِ



نهاية العلم التوحيد

منطلق نظري والعبادة سلوك عملي، التوحيد فناعات والعبادة حركات، الإنسان يملك فكراً ويملك عملاً، قال العلماء: نهاية العلم التوحيد، وقالوا: ونهاية العمل العبادة، فأنت إذا وحدت وعبدت حققت الهدف من وجودك، حققت علة وجودك، أن توحد، وأن تعبد، توحد من خلال هذا الكون، من خلال آياته الكونية، من خلال أفعاله، آياته التكوينية، و من خلال آياته القرآنية، وتعبد من خلال منهجه، فأنت إذا وحدت وعبدت حققت الهدف من وجودك، وهذا لا يمنع أن يكون الإنسان غير موحد، ويحمل دكتوراه، عندها نقول: ما كل ذكي بعقل، كأن الذكاء متعلق بالتفاصيل، والجزئيات، وكأن العقل متعلق بالكليات، فالذي يغفل عن سرّ وجوده، وعن غاية وجوده، و عما ينبغي أن يكون، ليس موحداً لكنه وقع في شرك خفي.

الآن الشرك كلمة كبيرة جداً، أن تقول: فلان مشرك تهمة كبيرة جداً، لكن العلماء ميزوا بين شرك أكبر وبين شرك أصغر، الأكبر أن تجد صنماً كبعض ديانات آسيا، بوذا يعبد من دون الله، مرة كنت في أمريكا أرادوا أن يأخذوني إلى معبد هندوسي، وصلت إلى المعبد وجدت صنمين من البرونز، وصدقوا ولا أبلغ على صدريهما الألماس البرلنت بمئات الملايين، ورأيت أتباع هذا الدين ينبطحون انبطاحاً كاملاً أمام الصنم، ورأيت أشياء كثيرة، فالإنسان حينما لا يوحد ويعبد صنماً، أو حجراً، أو شمساً، أو قمرأ، يكون قد وقع في الشرك الأكبر، أما حينما يوالي إنساناً ليس مستقيماً لكنه ينتفع منه، هذا شرك أصغر، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:



(( أخوف ما أخاف على أمتي الشرك  
(( الخفي))

[ورد في الأثر]

الشرك الجلي من فضل الله عز وجل  
المسلمون معافون منه، أما الشرك  
الخفي كما قال النبي عليه الصلاة  
والسلام:

(( أما إنني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله ))

[ورد في الأثر]

أنت حينما تتبع شهوة لا ترضي الله جعلت هذه الشهوة إلهاً، والدليل:

﴿رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾

(سورة الفرقان)

أنت حينما تخضع لشهوة لا ترضي الله، تصر عليها، أنت مشرك بمعنى أنك آثرت هذه الشهوة على طاعة الله، وكأنها إله عبدتها من دون الله.

## نهاية العلم ألا ترى مع الله أحداً و أن ترى أن الله وحده هو المتصرف بالكون:

أحياناً تجد إنساناً مولع بالتحف أينما سافر، دخلت مرة إلى بيت فيه من التحف ما يزيد عن عشرة ملايين، صاحب هذا البيت له أذواق رفيعة جداً، أحياناً يتعلق بالسفر، أحياناً يتعلق بالمباحات، ولا تنسوا أيها الأخوة، أن الشيطان كما يوصف ذكي جداً بمعنى أنه يجس النبض، يوسوس لك بالكفر لا سمح الله ولا قدر، فإذا رأك على إيمان



وسوس لك بالشرك، فإن رأك على توحيد وسوس لك بالكبيرة، فإن رأك على طاعة وسوس لك بالصغيرة، فإن رأك على ورع بقيت معه ورقتان ورقة المباحات، وسوس لك بالمباحات يمضي كل وقته في دنياه من دون معصية، لكن أتلف وقته واستهلك وقته لخلاف ما ينبغي، فإن لم يستجب له بقي معه ورقة أخيرة هي من فعل الشيطان، يوسوس له بالتحريش بين المؤمنين. تجد الجماعات الإسلامية على خلاف يتراشقون التهم، كل يدعي وصلاً بليلى، كل يعتم على من حوله، هذه حالة من حالات البعد عن الله، وأنا أقول دائماً ما لم يكن انتماءك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، فالتوحيد نهاية العلم، نهاية العلم ألا ترى مع الله أحداً، نهاية العلم أن ترى أن الله وحده هو المتصرف بالكون، نهاية العلم أن ترى أنه لا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، التوحيد أن ترى أنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، والتوحيد أن ترى أنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، التوحيد مستحيل أن ترضي إنساناً بمعصية الله، مستحيل أن ترضي مخلوقاً كائناً من كان بمعصية الله، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "لا طاعة لمخلوق في معصية الله".

## حياة الموحد:

التوحيد حينما لا تخشى إلا الله، ولا ترجو غير الله، ولا تتوكل إلا على الله، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تعلق الآمال إلا على فضله، وهذا التوحيد نهاية العلم، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، حياة الموحد يصعب تصورها، عنده راحة نفسية، علاقته مع جهة واحدة، بينما علاقات الناس مع جهات كثيرة إن أغضب زيداً يرضى عبيد، وإن أغضب عبيداً يرضى زيد، وهو موزع، مشردم، مبعثر بين إرضاء كل الناس، الموحد يرضى الله وحده، الموحد يعلق الأمل على الله وحده، الموحد لا يحقد أبداً، لا ييأس، يؤمن أن الله عز وجل بيده كل شيء، الموحد لا يشعر بالظلم أبداً،

يعلم علم اليقين أن الذي ناله بسوء ما كان له أن يناله بسوء لولا أن الله سمح له، ولأن الله كامل كمالاً مطلقاً إذاً هناك خلل عندي.



مثل بسيط، أحياناً هناك أمثلة صارخة، بالسبعينات كان هناك محل أقمشة بأحد أسواق دمشق، يوجد بالمحل محاسب، يبدو أن خلافاً نشب بين صاحب المحل وبين المحاسب فطرده، المحاسب أبلغ المسؤولين عن بضاعة ليست نظامية، فلما دوهمت مستودعاته - القصة بالسبعينات - كان الدولار بثلاث ليرات، فدفع ستمئة أو سبعمئة ألف، أي

قريباً من عشرين مليوناً أو خمسين مليوناً قياساً على هذه الأيام - هناك إنسان أوصى أن يحفظ سعر الذهب يوم زواجه، وأن يحسب سعر الذهب يوم موته، وأن تعطى زوجته المهر على سعر الذهب الجديد، فلما أجري الحساب قدر المهر بسبعة آلاف أي ما يقدر بمليون ليرة قياساً على هذه الأيام - هذا التاجر لم يحتمل عنده مسدس أطلق النار على هذا المحاسب وأرداه قتيلاً، والآن هو في السجن حكم ثلاثين عاماً، انظر التعليق اللطيف، لو أن هذا التاجر رأى أن هذا المحاسب ما نال منه، ما نال إلا أن الله سمح له، فكأن هذا المحاسب عصا بيد الله، الموحد يستسلم ويرضى عن الله، ويراجع نفسه، هذا لو راجع نفسه لكان المبلغ زهيداً لأن الله عز وجل أعطاه أضعافاً مضاعفة، أنت حينما توحّد لا تحقّد، حينما توحّد لا تياس، حينما توحّد لا تشعر بالضيم، علاقتك مع الله، أقسم لكم بالله الموحد يعيش حياة تفوق حدّ الخيال، قد يكون فقيراً، قد يكون بيته صغيراً، قد يكون دخله محدوداً لكنه راض عن الله، لكنه يرى أن الحياة الدنيا زائلة، وأن الآخرة هي دار القرار:

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ

الْمُحْضَرِينَ ﴾

(سورة القصص)

### الدين كله توحيد:

أيها الأخوة، أكاد أقول: الدين كله توحيد، ألا ترى مع الله إلهاً، ألا ترضى من إنسان وهذا الإنسان هو الذي سخره الله لك، تشكر الهي أولاً ثم تشكره ثانياً، وألا تغضب إذا أساء أحد إليك ترى أن الله سمح له، وما كان لله جلّ جلاله أن يسمح له إلا بسبب خلل عنده لذلك ورد في بعض الآثار:

(( ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر ))

[ أخرجه ابن عساکر عن البراء ]

التوحيد أن تتعظ بالمصيبة، وأن ترى هذه المصيبة رسالة من الله، التوحيد أن ترى أن لكل واقع حكمة ولو كان الموقع مجرمًا، أنت بالتوحيد ترى أن الحادي عشر من أيلول بعد ربح من الزمن سوف نكتشف أن هذا الحدث كان في النهاية لصالح المسلمين، التوحيد أن تتعلق بالله وحده ولا تبعاً بأحد، النبي عليه الصلاة والسلام قال: " وما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر".

(( لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي، ولكن أخ وصاحب في الله حتى يجمع الله

بيننا ))

[ ابن إسحاق عن بعض آل أبي سعيد بن المعلى ]

فلما مات النبي عليه الصلاة والسلام، رد الناس على الصديق قائلاً: من كان يعبد محمداً (هكذا فقط) وأنا أعتقد أنه ما على وجه الأرض إنسان أصابه ألم كالذي أصاب هذا الصحابي الجليل، لكن التوحيد أنقذه.

" من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ".

**التوحيد هو الدين كله فإن ألغى التوحيد ألغى الدين:**

التوحيد أن سيدنا عمر عزل سيدنا خالد، جاءه سيدنا خالد، قال: يا أمير المؤمنين لم عزلتني؟ قال له: والله إني أحبك، قال: لم عزلتني؟ قال: والله إنك أحبك، قال: لم عزلتني؟ مرة ثالثة، قال له: والله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله، أراد أن ينقذ التوحيد بعزله، توهم الناس أن خالد بن الوليد هو الذي ينصرهم من دون الله، فعزله، النصر مستمر، قضية التوحيد هي الدين كله، قضية التوحيد ألا تيأس، ألا تخضع، ألا تتضعع، قضية التوحيد:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

أنا لا أصدق أن موحدًا يخضع لغير الله، لا أصدق أن موحدًا ييأس، لا أصدق أن موحدًا يتشاءم، مع الإيمان بالله ليس هناك تشاؤم، ليس هناك يئس، ليس هناك تضعع، ورد في بعض الآثار:



## (( من دخل على غني فتضع له ذهب ثلثا دينه ))

[ رواه البيهقي عن ابن مسعود ]

إن ألغى التوحيد يلغى الدين، حتى الذين يعبدون أصناماً من دون الله يقولون:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

( سورة الزمر الآية: ٣ )

فذلك: " أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمالاً لغير الله ."

من لم يقل أنا أسعد الناس فإيمانه خلل كبير:



لكن قد يقول أحدكم التوحيد سهل، هو نظرياً سهل جداً، فكرة رائعة مقبولة وتحفظ، أما التوحيد عملياً صعب جداً، مرة سألت إنسان طبيباً قال له: علمني كيف أكتب وصفة للناس؟ ابتسم الطبيب و قال له: كتابة الوصفة محصلة دراسة أربعين سنة، بعد أربعين سنة دراسة يمكن أن تكتب وصفة، فالتوحيد محصلة استقامتك،

محصلة تفكير بالكون، محصلة أعمالك الصالحة، محصلة انضباطك، محصلة مجاهدة النفس والهوى، كل الجهود التي تبذل في حقل الدين قد تتوج بالتوحيد، فالموحد لا يبأس، ولا يحقد، ولا يتشام، الموحد إذا لم يقل لك: أنا أسعد إنسان في الأرض يوجد بالتوحيد خلل، والإنسان حينما يعصي الله من ضعف توحيده، أحياناً يغش، لماذا غش؟ هو توهم أن هذا الغش سيأتيه بمورد إضافي ينتفع به وغفل أن الله بيده الرزق، يأتيه مورد إضافي أصاب البضاعة لأسباب تافهة يدفع عشرة أضعاف.

لي قريب يعمل في إصلاح السيارات، له جار جاءه إنسان اشترى سيارة جديدة وهو جاهل أن في دقائقها هناك مشكلة، جاره واقف أمامه قال له تحتاج ثلاثة أيام وعشرة آلاف، هي تحتاج إلى تنظيف شيء في السيارة خلال دقيقة، قال لي: بعدما ذهب صاحب السيارة على أساس أن يأتي بعد أربعة أيام، اتصل بأهله أخذهم بالمركبة يوماً إلى الزبداني، ويوماً على طريق المطار، ويوماً على الوادي، واستخدم هذه السيارة أياماً ثلاثة ولما جاء صاحب السيارة قال له: هذه عشرة آلاف دفعهم عدأً ونقدأً، فقال له جاره: حرام عليك، قضية تنتهي بخمس دقائق تكلفك عشر ليرات أخذت

منه عشرة آلاف، قال له: هكذا العمل، هذا غير موحد، لم يرَ أن الله سينقم منه، بعد يومين ابنه يعمل في مخرطة تدخل نثرة فولاذ إلى عينه، فدفَع ما يقدر بست عشرة ألف ليرة لبناني، وكانت الليرة لبناني قديماً بمئة وستين قرشاً سورياً أي دفع حوالي خمسة وعشرين ألفاً، حتى نزلت هذه النثرة من قرنية ابنه.

التوحيد أن ترى أنك لن تتجو من عذاب الله لو أضرت بالمسلمين.

### ما من مصيبة على وجه الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد:

أيها الأخوة الكرام، حياتنا لا تصلح إلا بالتوحيد، التوحيد لمجرد أن تعصي الله من أجل مال وفير فأنت غير موحد، ما رأيت أن الله هو الرزاق:

(( من أصاب مالا من نهوش أذهبه

الله في نهائر ))

[ابن النجار عن أبي سلمة الحمصي]

ما من مصيبة على الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد يذهب ماله نهياً، تجد مصادرات، ضرائب فوق طاقة الإنسان، يحترق



معمله، لأنه لم يحاسب نفسه حساباً عسيراً، قد يكون هذا الحق حق العمال، أنت بقوتك وجبروتك وطلاقة لسانك أفتعتهم بهذا، يقول لك: السعر السائد من أجل التكلفة، لكن ما وحدت الله، بإمكانك أن تعطي ضعف الأجر، والمعمل يزداد تألقاً، ما انتبهت لهذه النقطة.

أيها الأخوة الكرام، والله ما أرى مصيبة على وجه الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد، ما أرى معصية على وجه الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد، ما أرى إنساناً متشائماً يائساً يشكو كثيراً إلا لضعف التوحيد، وأنت حينما توحد تحل كل المشاكل، فلذلك نختم هذا اللقاء الطيب بهذه العبارة التي أردها كثيراً، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين